منطقة أوراسيا... جيوسياسية نفوذ وتنافس القوى الكبرى

أ.د. عبد الوهاب بن خليف

كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر3

الملخص

تتعرض هذه الدراسة إلى الأهمية الجيوإستراتيجية التي تكتسيها منطقة أوراسيا في العلاقات الدولية خاصة بعد بروز فاعلين دوليين وإقليميين على غرار عودة روسيا وكذا الصين والهند وتركيا وإيران وغيرها، بالإضافة إلى الأدوار الأمريكية والأوروبية في هذه المنطقة.

وبالرغم من أن هذه المنطقة الهامة التي كانت إلى غاية بداية التسعينيات من القرن الماضي مجالا حيويا لروسيا بامتياز، إلا أن التراجع الجيوإستراتيجي الذي عرفته روسيا بعد نهاية الحرب الباردة، فسح المجال واسعا لقوى دولية وإقليمية للعب في هذه المنطقة وفق إستراتيجيات ومشاريع تستهدف تحقيق مصالح مختلفة عسكرية وإقتصادية وجيوسياسة، خاصة خلال العشرية الثانية من الألفية الثالثة على غرار الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وألمانيا، بالإضافة إلى الصين وتركيا وإيران.

كما أن التقارب الروسي الصيني الإيراني في العلاقات الدولية سيعزز دور ونفوذ هذه الدول في هذه المنطقة الحيوية بما يكرس مسار الانتقال إلى التعددية القطبية.

كلمات مفتاحية: أوراسيا، القوى الكبرى، التنافس، المصالح.

المقدمة

تمثل منطقة أوراسيا مجالا حيويا يحتدم فيه الصراع والتنافس بين القوى الكبرى بهدف تحقيق مصالح وكسب نفوذ في هذه المنطقة الهامة، كالولايات المتحدة الأمريكية

وروسيا. هذه الأخيرة التي عادت إلى ساحة الصراع بعد فترة فراغ جيوسياسي وتحييد أمريكي في فترة ما بعد الحرب الباردة. كما أن عودة روسيا كقوة عسكرية وفاعل دولي وحليف تاريخي لعديد الدول في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وكذا بروز الصين كعملاق اقتصادي وإيران كقوة إقليمية، بالإضافة إلى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية العدائية في عهد الرئيس دونالد ترامب، كلها متغيرات بدأت تقود نحو تغيير في بنية النظام الدولي شيئا فشيئا وبداية زوال الأحادية القطبية والانتقال إلى التعددية القطبية.

1-الأهمية الجيوإستراتيجية لمنطقة أوراسيا

تمثل منطقة أوراسيا مجالا حيويا يشمل مناطق مختلفة من القارتين الأوروبية والآسيوية وتمتد إلى روسيا ودول القوقاز شمالا وإلى منطقة البحر الأبيض المتوسط جنوبا وشرق أوروبا وآسيا الوسطى غربا. وتقع دول كبرى لها ثقل سياسي واقتصادي في العلاقات الدولية، على هوامش المنطقة الأوراسية أو تلك التي تشكل قوس أوراسيا، على غرار الصين والهند من الناحية الشرقية وتركيا وإيران من الجنوب وألمانيا من الجهة الغربية...

ويلخص المفكر البريطاني ماكيندر هذه المنطقة الحيوية بأنها تمثل الجزء الشرقي لأوروبا والجزء الغربي لآسيا و(شمال أفريقيا كامتداد لغرب آسيا) وهما اللذين يشكلان مركز الجزيرة العالمية، والتي تمثل قلب العالم أو المحور الجغرافي للتاريخ.ويصف المفكر الأمريكي بريجنسكي منطقة أوراسيا بأنها عبارة عن رقعة شطرنج يستمر عليها الصراع من أجل احتلال المكانة الأولى في العالم[1]. وهذا ما سعت إليه القوى الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا، ألمانيا، روسيا والإمبراطورية العثمانية... خلال القرنين الماضيين، وما تسعى إليه اليوم روسيا والولايات المتحدة الأمريكية والصين من أجل كسب معركة النفوذ في هذه المنطقة الحيوية.

كما اعتبر ألكسندر دوغين أن منطقة أوراسيا كانت خلال القرن العشرين ساحة للصراع بين القوتين البرية بقيادة روسيا والقوة البحرية الأطلسية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. ويعتقد أن المنطقة الأوراسية هي امتداد طبيعي وعمق إستراتيجي لروسيا، التي تسعى لاستعادتها[2].

2- الفراغ الجيوسياسي في بداية التسعينيات من القرن العشرين

برزت ساحات الفراغ الجيوسياسي والجيواقتصادي في مرحلة الحرب الباردة حول نقاط الاتصال والعبور المائية لقارات أوروبا، آسيا وإفريقيا وخطوط النقل بين الشمال والجنوب، بحيث ظهرت فيها التوازنات الإقليمية والدولية مختلة، وكان أكثر المستفيدين من هذه الوضعية الجيوسياسية الجديدة الولايات المتحدة الأمريكية. لذلك، فقد تشكّلت ساحات الفراغ الجيوسياسي، والتي برزت في الطرق والمنافذ الإستراتيجية بشكل لافت في مناطق القوقاز، البلقان، آسيا الوسطى والشرق الأوسط...وهي مناطق تقع في المجالات الحيوية الأوراسية.

إن تفكك الإتحاد السوفييتي وانسحابه من مناطق جيوإستراتيجية، ترك فراغا إستراتيجيا في العديد من المناطق، نذكر منها:

- انسحابه من أوروبا الشرقية خاصة الدول القريبة جغرافيا، ومنها من كانت جزءا من الإتحاد السوفييتي سابقا، على غرار أوكرانيا، دول البلطيق...

- انسحابه من المنطقة العربية والذي أحدث اختلالا إستراتيجيا بين الدول العربية وإسرائيل، لم تشهده المنطقة العربية منذ الحرب العالمية الثانية، خاصة في ظل الانحياز الأمريكي الكامل لصالح إسرائيل على حساب فلسطين، ووصلت القضية الفلسطينية إلى أسوأ مراحلها، أخطرها ما يُعرف بصفقة القرن التي تهدف إلى تصفية نهائية للقضية الفلسطينية.

- أدى انسحاب الإتحاد السوفييتي سابقا من المنطقة العربية إلى فسح المجال لقوة عظمى وهي الولايات المتحدة الأمريكية، التي وظفت أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 كذريعة لتمرير مشروعها الجديد تحت تسمية مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي يكرس الهيمنة الأمريكية والإسرائيلية على المنطقة العربية للمحافظة على أمن إسرائيل والمصالح الأمريكية في المنطقة، والذي تكرّس فعلا منذ غزو العراق عام 2003 واستمر إلى عام 2011 وسقوط دول عربية محورية في دوامة العنف، مثل: العراق، سوريا، ليبيا، اليمن، السودان...

- انسحابه من منطقة آسيا الوسطى آخرها أفغانستان في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين، حيث ترك فراغا إستراتيجيا، ملأته الولايات المتحدة الأمريكية في التسعينيات وبداية الألفية الثالثة باحتلال أفغانستان تحت مظلة حلف الناتو في عام 2001 واحتلال العراق عام 2003.

- أدى انهيار الاتحاد السوفييتي في بداية التسعينيات من القرن الماضي إلى الانتقال من الثنائية القطبية التي بدأت منذ الحرب العالمية الثانية إلى الأحادية القطبية التي اتسمت بهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على الساحة الدولية.

اعتمدت الولايات المتحدة الأمريكية في أعقاب نهاية الحرب الباردة وتحديدا في نهاية الثمانينيات إستراتيجية بعيدة المدى في أوروبا، تهدف إلى ملء الفراغ الإستراتيجي، الذي نتج عن انهيار الاتحاد السوفييتي سابقا[3] من خلال عزل روسيا وتحييد أوكرانيا ومحاولة احتواء أوزبكستان وإبعاد آسيا الوسطى من ساحة النفوذ. ويفهم من هذه الإستراتيجية كذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية قد ركّزت على منطقة أوراسيا باعتبارها منطقة حيوية ومصدرا مهما بالنسبة لانتقال السلع والمال لتقوية الاقتصاد الأمريكي وتحسين مستوى معيشة الأمريكيين.

كما سعت إلى إضعاف روسيا لما لها من دور مؤثر أوروبيا وعالميا من خلال محاصرتها وإبعادها عن أوروبا واليابان والصين بتعزيز التقارب الأمريكي- الصيني- الياباني واستدراج الترسانة النووية الأوكرانية لحلف الناتو في إطار عملية الإصلاحات والتوسيع التي باشرها منذ بداية التسعينيات[4]. لكنها فشلت في استيعاب الصين، لأن التقارب الروسي-الصيني، أصبح أكثر من أي وقت مضى يمثل النواة الصلبة في محور موسكو-بكين، خاصة منذ بداية العشرية الثانية من الألفية الثالثة.

3- العودة الجيوإستراتيجية الجديدة لروسيا

عادت روسيا للعلاقات الدولية من البوابتين الأوكرانية والسورية، أي منذ عام 2013، واستعمالها رفقة الصين لحق الفيتو ضد المشاريع التي طرحتها الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية:

- الأزمة الأوكرانية

هي من أخطر الأزمات الدولية التي واجهتها روسيا الجديدة في عهد الرئيس بوتين، لأن أوكرانيا تربطها حدود مع روسيا. فقد سعت الولايات المتحدة الأمريكية للوصول إلى العمق الإستراتيجي الروسي المباشر عبر أوكرانيا من خلال استدراجها إلى عضوية حلف الناتو وبناء شراكة اقتصادية مع الإتحاد الأوروبي، وهو ما اعتبرته روسيا تهديدا مباشرا لأمنها القومي، وردّت عليه روسيا بعمليات عسكرية في شرق أوكرانيا كان آخرها التدخل العسكري في شبه جزيرة القرم عام 2014.

- الأزمة السورية

مثّلت سوريا لروسيا آخر قلاعها الإستراتيجية المطلة على البحر الأبيض المتوسط بعد سقوط العراق في عام 2003 وليبيا عام 2011، خاصة وأن سوريا تربطها علاقات إستراتيجية مع روسيا منذ السبعينيات من القرن الماضي وتملك قاعدة عسكرية في طرطوس شرق البحر المتوسط. فقد استعملت الولايات المتحدة الأمريكية حق النقض في مجلس الأمن عدة مرات لإفشال مشاريع التدخل الغربي في سوريا. وقد تدخّلت عسكريا في الجغرافيا السورية عام 2015.

4- أوراسيا في مواجهة الأطلسية الأمريكية

بالرغم من التراجع الروسي منذ بداية التسعينيات من القرن الماضي سياسيا وعسكريا في شرق أوروبا إلى غاية مجيء الرئيس الروسي فلاديمير بوتين خلال بداية العشرية الأولى من الألفية الثالثة، فقد كانت هناك مبادرات روسية كانت تهدف للتقرب من دول الإتحاد الأوروبي، نذكر من أهمها المبادرة التي تم اقتراحها من قبل القيادة الروسية في الخامس جوان 2008، حيث اقترحت روسيا على دول الإتحاد وتحديدا ألمانيا اتفاقية جديدة للأمن في أوروبا، تقضي بوضع تصور جماعي للوقاية وحل النزاعات وبلورة أشكال جديدة للتعاون ومحاربة الإرهاب والجريمة المنظمة وكذا مراقبة التسلّح وتعزيز الأمن في المنطقة الأورو أطلسية.

تهدف روسيا من وراء هذه المبادرة تقويض مشاريع التوسيع التي بادر بها حلف الناتو من شرق أوروبا إلى المنطقة الأوراسية، وحتّى دعوة غير رسمية للأوروبيين خاصة

فرنسا وألمانيا للخروج من هذا الحلف الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية خدمة لمصالحها على حساب المصالح الأوروبية نفسها.

لكن الأوروبيين حتّى وإن كانوا مقتنعين من أن التعاون مع روسيا سيجعل من الإتحاد الأوروبي قوة عالمية، فإن أغلبهم مازالوا يعتقدون بأن الولايات المتحدة الأمريكية هي القوة العسكرية والاقتصادية، التي بإمكانها إنقاذ الإتحاد الأوروبي من الانهيار والتراجع، لأنهم يعرفون جيدا أن الولايات المتحدة الأمريكية بالرغم من أنها تدعم مؤسسات الإتحاد الأوروبي وتحبذ استمراره ككيان، لكنها بالمقابل لا تريد أن يكون هذا الإتحاد قويّا ومستقلا عن المظلة الأمريكية.

وإن كانت هذه الفرضية قد تراجعت كثيرا منذ مجيء الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، الذي شجّع خروج بريطانيا من الإتحاد الأوروبي، وانسحب من الاتفاقات التي تربط الولايات المتحدة الأمريكية مع شركائها الدوليين خلال عهدته الرئاسية (2016-2020)، نذكر منها: انسحابه من منظمة اليونسكو، من اتفاقية المناخ بباريس، من اتفاقية التجارة الحرة مع أوروبا، الاتفاق النووي الإيراني مع الدول الكبرى. كما أوقف المساهمات الأمريكية للمنظمة العالمية للصحة ولمنظمة الأنروا للاجئين الفلسطنيين وغيرها...

كما كانت هناك إرادة أوروبية خلال قمة منظمة الأمن والتعاون الأوروبي المنعقد في 1 و 2 ديسمبر 2010 بأستانا بكزاخستان، والتي كان هدفها إعادة بعث التعاون بين الأعضاء البالغ عددهم 56 عضوا، والذين اجتمعوا لأول مرة منذ عام 1999، من أجل الأمن الأوروبي والأوراسي خارج أوروبا.

كما أن قمة الإتحاد الأوروبي-روسيا المنعقدة في 7 ديسمبر 2010 ببروكسل، كانت ترمي إلى التقارب الروسي مع دول الإتحاد الأوروبي، باعتبار أن هناك عمقا إستراتيجيا متبادلا بين الطرفين سيستدعي التعاون والتقارب في جميع الميادين. لكن يبدو أن هناك الكثير من العراقيل التي حالت دون تجسيد المبادرات السابقة، من بينها:

- تباعد المواقف الروسية مع دول الإتحاد الأوروبي بخصوص الأزمة السورية التي بدأت في عام 2011، حيث كان هناك اصطفاف لدول الإتحاد الأوروبي مع

الموقف الأمريكي المناهض للنظام السوري من جهة، والدعم الإستراتيجي الروسي لسوريا من جهة أخرى.

- اندلاع الأزمة الأوكرانية في عام 2013 بعد الدعوة الأوروبية لأوكرانيا لعقد شراكة مع الإتحاد الأوروبي وكذا الانضمام إلى حلف الناتو، التي كانت بمثابة الضربة القاضية للعلاقات الروسية الأوروبية، لاسيما بعد انضمام شبه جزيرة القرم لروسيا، خاصة أن أوكرانيا التي تربطها حدود مع روسيا تمثل العمق الإستراتيجي المباشر لهذه الأخيرة، بالإضافة إلى أن جزءا كبيرا من الصناعات الأوكرانية مرتبطة عضويا بالصناعات الروسية خاصة العسكرية منها، زيادة على أن ثلث الأوكرانيين خاصة في شرق أوكرانيا يتحدثون اللغة الروسية ويتبنون ثقافتها، علما أن أوكرانيا كانت جزءا من الاتحاد السوفييتي إلى غاية تفككه في بداية التسعينيات.

- إن منطقة أوراسيا من أهم المناطق في العالم، فهناك العديد من المفكرين الذين تعرضوا لأهميتها الجيوسياسية والجيوإستراتيجية، على غرار المفكر البريطاني في الجيوسياسة هالفورد جون ماكيندر، الذي يصفها بأنها « تقع في مركز العالم، ويقع في مركزها قلب العالم، ومن يتحكم في هذا القلب، يتحكم في العالم كله»[5].

كما ذهب المفكر الأمريكي بريجنسكي إلى أن تفوّق الولايات المتحدة الأمريكية على المستوى العالمي يعتمد مباشرة على مقدار استمرارية وكيفية سيطرتها على القارة الأوراسية[6].

تزداد أهمية هذه المنطقة عندما نتعرض إلى منطقة بحر قزوين والدول المجاورة له، وهي: روسيا، أذربيجان، إيران، تركمانستان وكزاخستان، خاصة إذا علمنا أن هناك احتياطات كبيرة من البترول والغاز حسب التقديرات، إذ يشكل البترول على التوالي بالنسبة لروسيا وإيران أكثر من 5 بالمائة من الإحتياط العالمي وبالنسبة للغاز أكثر من 15 بالمائة و23 بالمائة. أما الدول الثلاث الأخرى: أذربيجان، كزاخستان وتركمانستان تمثل ما بين 3 بالمائة و4 بالمائة من احتياطات العالم بالنسبة للبترول و 6 بالمائة بالنسبة للغاز في العالم[7].

فقد بادرت دول الإتحاد الأوروبي إلى الاستثمار في هذه المنطقة المهمة من أوراسيا، من خلال الاستفادة من المشاريع الخاصة بالبترول والغاز. فهناك مشاريع بدأ العمل بها وأخرى في طريقها للتجسيد، ومن أهمها[8]:

- أنبوب نفط رابط بين أذربيجان- تركيا عبر جورجيا، بدأ العمل عام 2006.
- أنبوب غاز رابط أذربيجان- جورجيا- تركيا، الذي بدأ العمل منذ عام 2007.
- أنبوب نفط إيران - تركمانستان- كزاخستان- روسيا- البحر الأسود.
- خط نفط إيران-أفغانستان-تركمانستان.
- خط نفط باكستان-الهند-الصين.
- خط غاز إيران-تركمانستان.
- خط غاز إيران-تركيا[9].

كما أن هناك مشاريع أخرى في الغاز تربط بين روسيا وأوروبا عبر تركيا، وقطر وأوروبا عبر تركيا كذلك...، بالإضافة إلى مشاريع الغاز والطاقات المتجددة بين الجزائر وأوروبا لاسيما مشروع ديزرتاك بين الجزائر وألمانيا.

وتمثل هذه المنطقة الجيوإستراتيجية بالنسبة لدول الإتحاد الأوروبي مصدر اهتمام لتنويع احتياطاتها من الطاقة وارداتها من هذه المادة الحيوية، حتى لا تكون روسيا فقط هي الممول الوحيد لأوروبا خاصة بعد الأزمة الأوكرانية وتداعياتها الأمنية والسياسية على العلاقات بين روسيا وأوروبا.

5- المثلث الجيوإستراتيجي: الصين- روسيا- إيران

إن عودة روسيا كقوة عالمية في المجال الإستراتيجي العسكري والصعود المتعاظم للصين كقوة اقتصادية عالمية، وبروز إيران كقوة إقليمية بعد دخولها نادي الكبار منذ التوقيع على الاتفاق النووي في جوان 2015 بين إيران والدول الدائمة العضوية في مجلس

الأمن وألمانيا، أعاد الاعتبار لمنطقة أوراسيا والدول المحيطة ببحر قزوين الغنية بالنفط والغاز، بالإضافة إلى الاحتياطات الهائلة التي لم تُستغل بعد في بحر قزوين.

وازدادت الأهمية الجيوإستراتيجية لمنطقة أوراسيا بعد التوجّه الصيني نحو منطقة آسيا الوسطى والقوقاز والبحر الأسود وتعزيز العلاقات الاقتصادية والتجارية مع هذه الدول.

وكانت منظمة شنغهاي التي تمثل الإطار المصلحي الذي تلتقي فيه هذه الدول خاصة الدول الأكثر تأثيرا وهي الصين من الناحية الاقتصادية وروسيا من الناحية العسكرية والإستراتيجية. وينتظر من هذه المنظمة أن تكون أكثر حضورا على الساحة الدولية من خلال الاستثمار الكبير الذي قامت به الصين. وسيكون طريق الحرير، الشبكة الاقتصادية التي تعزّز التعاون بين الصين ودول المنطقة الأوراسية باعتبارها همزة وصل بينها والقارات الثلاث: آسيا-أفريقيا-أوروبا.

كما كانت هناك إستراتيجية تضييق غربي بإيعاز أمريكي على المجالات الحيوية المختلفة لروسيا والصين وحتى إيران في أوروبا الشرقية (أوكرانيا، دول البلطيق الثلاث، بولونيا، ألبانيا، جمهورية التشيك...)، والقوقاز (جورجيا...) ودول آسيا الوسطى (أرمينيا، أذربيجان، كزاخستان...) خاصة بعد التوقيع على معاهدة السلام بين حلف الناتو وهذه الدول عام 1999، من خلال محاولات ضم عدد من هذه الدول لحلف الناتو والإتحاد الأوروبي، بالإضافة إلى تنصيب الولايات المتحدة الأمريكية للدرع الصاروخي في دول من أوروبا الشرقية خاصة بولندا وجمهورية التشيك.

لكن بالمقابل، هذه الإستراتيجية التي كانت تهدف إلى إضعاف هذه الدول وتحييدها، كانت لها نتائج عكسية، أدت إلى زيادة في التقارب الروسي- الصيني أكثر من أي وقت مضى، بالإضافة إلى أنه كان سببا مباشرا في استيعاب إيران وضمّها إلى محور موسكو-بكين، زيادة على ذلك أدت إلى تعزيز التعاون بين هذه الدول وباقي منظمة شنغهاي. فقد أصبحت بالرغم من العقوبات الاقتصادية الصارمة، إلا أنها خرجت أقوى بعد التوقيع على الاتفاق النووي مع الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن وألمانيا.

تعرّض المفكر الأمريكي بريجنسكي في منتصف العشرية الأولى من الألفية الثالثة، في كتابه «الفرصة الأخيرة» للاتجاهات الجيوسياسية المعاكسة للولايات المتحدة الأمريكية، بسبب اشتداد الاستعداء للغرب في كل أنحاء العالم الإسلامي، بعد أحداث الحادي عشر سبتمبر 2001، وما انجر عنها من احتلال أفغانستان في نفس العام ثم غزو العراق في عام 2003. نتيجة لكل ذلك، عرفت الولايات المتحدة موجات استعداء كبيرة في العديد من مناطق العالم، نذكر أهمها:

- تفجّر الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط (القضية الفلسطينية، أفغانستان، العراق...)

- هيمنة إيران على منطقة الخليج.

- السخط الأوروبي ضد السياسات الأمريكية في الشرق الأوسط.

- الاستياء الروسي من السياسة الأمريكية في العديد من المناطق.

- تعاظم نفوذ الصين والتي أصبحت أكثر تطوّرا بعد مرور عقدين من الألفية الثانية، بالإضافة إلى الدور الذي تقوم به منظمة شنغهاي في آسيا والعالم.

- عزلة اليابان باعتبارها حليف إستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية.

- تزايد الموجات الشعبية المعادية للولايات المتحدة الأمريكية.

- فشل السياسات الأمريكية في العالم لاسيما بعد تراجع الدور الأمريكي في العالم خلال عهدتي الرئيس باراك أوباما وخاصة في عهد الرئيس دونالد ترامب الذي رفع شعار أمريكا أولا[10]، بالإضافة إلى المواقف السلبية التي تبنتها أمريكا خلال الأحداث التي عرفها العالم العربي وتكريس سياسة الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين وآخرها ما يُعرف بصفقة القرن لتصفية القضية الفلسطينية بشكل نهائي.

كما أن استمرار سياسة الاستعداء التي تمارسها الولايات المتحدة الأمريكية ضد إيران، لن تكون في مصلحتها، لأن ذلك سيصب في مصلحة روسيا والصين وباقي الدول

الأوراسية في القوقاز والبلطيق وآسيا الوسطى، وهو ما سيجعل أمريكا أكثر عزلة مع مر الوقت، خاصة بعد التصريحات المتكررة للرئيس الأمريكي دونالد ترامب «أمريكا أولا».

وتشكل منطقة آسيا الوسطى جسرا إستراتيجيا يربط بين الصين وروسيا وإيران، بالرغم من المشاكل السياسية والتحديات الجيوسياسية الموجودة في هذه المنطقة، التي تفرضها الولايات المتحدة الأمريكية ودول الإتحاد الأوروبي، لكن المصالح الاقتصادية بين الدول ستتغلب على الخلافات السياسية، نذكر أهم هذه التحديات:

- التوتر الأرميني–التركي، وهو مشكل تاريخي بين البلدين يعود إلى عام 1915 أيام الخلافة العثمانية والاتهامات الغربية لها بارتكابها مجازر في أرمينيا.

- تعاني جورجيا و قرغيزيا من الأزمات السياسية والخلافات الإثنية وفشل الدولتين في استيعاب هذه التناقضات الإثنية.

- الصراع الأرميني-الأذربيجاني حول إقليم ناكورنو كاراباخ وتداعياته الجيوسياسية داخليا وخارجيا.

- الأزمات الاقتصادية التي تعانيها دول القوقاز ودول آسيا الوسطى.

- الخلافات السياسية بين دول القوقاز حول المياه خاصة بين قرغيزيا وأوزبكستان وكازاخستان.

- الاحتلال الأمريكي لأفغانستان منذ عام 2001 وما اِنجر عنه من انعكاسات أمنية وسياسية خطيرة على البلاد والتي ستستمر تداعياتها لسنوات قادمة.

لكن بالرغم من كل ما سبق، فإن هذه المناطق الحيوية (القوقاز، وآسيا الوسطى...)، مرشحة لأن تكون أكثر جذبا واهتماما من قبل القوى الكبرى خاصة روسيا والصين، لأنها مرشحة لمزيد من الاكتشافات النفطية خاصة الدول المطلة على بحر قزوين خاصة إيران وكزاخستان وسيبيريا الروسية، وهو ما سيجعل من أوروبا أكثر اهتماما بهذه المناطق وفعلا هذا الاهتمام بدأ منذ بداية الألفية الثالثة من خلال المشاريع التي تجسّدت والمشاريع المتفق عليها.

وما يزيد من أهمية هذه المناطق هو قربها للصين، التي تمثل أكبر دولة من حيث التعداد السكاني، أكثر من مليار ونصف مليار نسمة، أي تقريبا ربع سكان الكرة الأرضية، وكذلك ما تسجله الصين من أكبر نسبة نمو في العالم واعتمادها المتزايد على نفط المنطقة.

6- محور روسيا-الصين والعالم العربي

بدأت فوائد التقارب الروسي- الصيني تتحقق من خلال الاستثمارات المتزايدة في المنطقة العربية، بالإضافة إلى الرهان الكبير الذي أصبحت توليه الدول العربية لهذا المحور الإستراتيجي بين روسيا والصين مع التراجع الأمريكي الواضح في المنطقة العربية وتوجّهه نحو المحيط الهادي خاصة خلال فترة حكم الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الذي أولى اهتماما للداخل الأمريكي على حساب الخارج.

إن عودة روسيا كقوة عالمية وتعاظم القوة الاقتصادية الصينية، عزّز من تراجع النظام الأحادي القطبية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية وشجّع نظام المتعدد الأقطاب. كما ستظل روسيا مصدرا للتقنية العسكرية للكثير من الدول العربية خاصة منها الجزائر، سوريا، العراق حتى دول كمصر وتركيا ودول خليجية، التي كانت حكرا على الولايات المتحدة الأمريكية، بالرغم من فقدانها لبعض الدول العربية التي لم تعد تمثل سوقا مهما للأسلحة بالنسبة لروسيا بعد الأحداث التي عرفتها هذه الدول ويتعلق الأمر بالدرجة الأولى بليبيا.

من جهتها، ستلعب روسيا خلال السنوات القليلة القادمة على جبهتين، الجبهة الآسيوية والأفريقية والجبهة الأوروبية، فبالنسبة لجبهة آسيا وشمال أفريقيا خاصة، فإن روسيا ستعتمد في ذلك على الموروث السياسي والعسكري الذي يحكمها مع هذه المنطقة. أما بالنسبة للجبهة الأوروبية، فإن روسيا ستظل تراهن على عمقها الإستراتيجي الأوروبي.

أما بالنسبة للعالم العربي، فإن روسيا والصين مازالت مواقفهما مؤيدة للدول العربية اقتناعا منها بأن مصالحها مازالت موجودة في المنطقة العربية خاصة في سوريا والعراق واليمن والقضية الفلسطينية بالرغم من تراجع وجودها في الدول العربية.

كما أن المواقف الروسية والصينية بعد الأحداث التي عرفها العالم العربي ووقوفهما ضد الإستراتيجية الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لتفتيت الدول في إطار مشروع الشرق الأوسط الجديد، منحهما مكانة مرموقة وثقة كبيرة في العالم العربي. لذلك، فإن مصلحة الدول العربية هي في تكييف مواقفها مع المواقف الروسية والصينية التي تعتبر أكثر سندا ودعما إذا ما قورنت بمواقف دول أخرى، خاصة وأن الدولتين عضوان دائمان في مجلس الأمن، مع الأخذ في الاعتبار بأن روسيا والصين تبحث دائما على المحافظة على مصالحهما المختلفة في المنطقة[11].

كما أن التغلغل الصيني في الأسواق العربية باحتلالها المراتب الأولى في أغلبية الدول العربية سيجعلها أكثر حضورا خاصة بعد تجسيد مشروع طريق الحرير التي ستكون الدول العربية أكثر الدول اهتماما بهذا المشروع.

ويبرز التركيز الروسي والصيني بعد عودتهما للساحة الدولية على محورين: المحور الآسيوي والأفريقي من جهة والمحور الأوروبي من جهة أخرى، فبالنسبة لقارتي آسيا وأفريقيا، فإن روسيا ستعتمد في ذلك على الموروث السياسي والعسكري الذي يحكمها مع هذه المنطقة. وبالنسبة للقارة الأوروبية، فإن روسيا ستظل تراهن على عمقها الإستراتيجي الأوروبي. أما الصين ستعتمد على القوة الناعمة من خلال تكثيف الاستثمارات الاقتصادية مع العالم العربي، خاصة وأنها لم تكون دولة غازية أو ضد المواقف العربية، الأمر الذي يسهّل من التغلغل الصيني في كافة الدول العربية.

الخاتمة

نصل إلى أن العلاقات الدولية تشهد تغيرات هيكلية في بنية النظام الدولي، ولم تعد الولايات المتحدة الأمريكية القطب الأوحد الذي يهيمن كما كان ذلك منذ بداية التسعينيات من القرن الماضي، خاصة بعد بروز قوى دولية وإقليمية جديدة بإمكانها أن تنافس أمريكا، على غرار عودة روسيا كلاعب فاعل وصعود الصين كقوة اقتصادية عالمية، دون إغفال القوى الإقليمية الصاعدة الأخرى، مثل: الهند، البرازيل، إيران، تركيا، جنوب إفريقيا...■

وعليه، فإن التعددية الجيوسياسية والانتقال من الأحادية القطبية إلى عالم متعدد الأقطاب، لن يتحقق دون تفاهمات سياسية، اقتصادية وإستراتيجية بين القوى الكبرى: الولايات المتحدة الأمريكية، الصين وروسيا.

الهوامش:

1. زيغنييف بريجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى: التفوّق الأمريكي وضروراه الجيوإستراتيجية الملحة، تر: سليم أبراهام. دمشق : دار علاء الدين للنشر، 2006، ص 08.

2. معين حداد، إشكالية المكان: دور البر والبحر في الصراع بين الشرق والغرب والعالم الإسلامي. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2015، ص 101.

3. أدّى انهيار الاتحاد السوفياتي سابقا إلى انتقال السلطة من ميخائيل غورباتشيف (Mikhaïl GORBATCHEV) إلى بوريس إلتسين (ELTSINE Boris)، الذي انتخب في 1991/06/12 رئيسا لروسيا.

4. Emmanuel TODD, Après l'Empire: Essai sur la décomposition du système américain. Paris : Editions Gallimard, 2002, PP.152 -154.

5. معين حداد، المرجع السابق، ص 73.

6. زيغنييف بريجنسكي، المرجع السابق، ص 39.

7. Gaïdz Minassian et autres, Eurasie au cœur de la sécurité mondiale. Paris: Editions Autrement Frontières, 2011, P.23.

8. Ibid, P.25.

9. وليد عبد الحي، إيران: مستقبل المكانة الإقليمية عام 2020. الجزائر: مركز الدراسات التطبيقة والاستشراف، 2010، ص 437.

10. زيغنييف بريجنسكي، الفرصة الثانية: ثلاثة رؤساء وأزمة القوة العظمى الأمريكية، تر: عمر الأيوبي. بيروت: دار الكتاب العرب، 2008، ص 187.

11. طه عبد العليم، روسيا والجمهوريات الإسلامية المستقلة ودورها الدولي الجديد، في: علي محافظة، المتغيرات الدولية والأدوار الإقليمية الجديدة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2006، ص 223.